الفصل الأول

المحسنات المعنوية

تمهيد :

جاء البديع في البيان النبوي عذبا فطريا له دور في التراكيب صياغة ومعنى ملائما للأغراض معينا على ما تقتضيه المقامات ، غير ملتزم ولا مقصور إليه وإنما كان صوت النفس ، ورجع الحس والوجدان ، وخفيفا لطيفا ، وليس هنا حشد ما اكتشفه البلاغيون وعلماء البديع من ألوان بديعية نيفت على المائتين ، والتماس أمثلة لها نبوية ، فليست تلك طريقة منهجية ، بل كان منهجنا درس ما تيسر من ألوان بديعية دراسة موضوعية تعين على بيان الأسرار البديعية في الأساليب ، واكتشاف الظواهر البلاغية واضحة مجلوة تبرز نفسها متميزة في البيان الكريم . كما أننا لن نفرق الصفحات ثناء حول بديع النبوة دون دراسة ، بل إن الثناء نفسه سيفرض نفسه من خلال الأساليب النبوية في علاجها بديعيا .

الطباق

تمهيد :

يجعل كثير من المتأخرين الطباق حلية بديعية يقصد إليها ، لتجميل المعنى وتزيينه ، وقد يكون ذلك صحيحا في غير البيان الكريم من أساليب البشر ، أما هنا فقد أدى غرضا من استيعاب الحكم استيعابا كاملا يفي بالمعنى ، أو لعقد مقابلة حسية أو نفسية ، حاضرة أو ماضية ، أو مستقبلة ، تأكيدا للغرض فليس ترفا أسلوبيًّا يتخفف منه ، يؤكد ذلك أن الطباق من الأمور الفطرية المذكورة

في الطباع إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده ، قال الإمام عبد القاهر في أسرار البلاغة «أما التطبيق والاستعارة ، وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة دون أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب»ثم يقول«أما التطبيق فأمره أبين وكونه معنويا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثَمَّ مجال»[1]

بل لقد جعله بعض النقاد المحدثين طريقة من طرق التصوير ، ووسيلة من وسائل التلحين ورباطا معنويا قويا يجعل الصورة متماسكة قوية ، أو وحدة واحدة في الفكر والخيال[2] وسنجد في البيان النبوي ما يلقى مزيدا من الأضواء .

المجموعة الأولى : (التأسيس)

١- عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[3]

٢- عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال :«من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[4]

٣- عن أبي موسى من دعاء النبي ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير»[5]

---

(١) ص ١٤
(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن : ص ٨٢
(٣) التاج الجامع ٣/٥
(٤) المرجع السابق ٧٨/٥
(٥) المرجع السابق ١١٩/٥

٤- عن بريدة عن النبي ﷺ «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[1]

ونلاحظ في هذه المجموعة : في الحديث الأول : أن البر والإثم تعلق بهما غرض السائل وقد وضح البيان أن البر حسن الخلق ، فأعطى البر مفهوما جديدا ولو توقفنا عن البر لجاز أن يفهم أن الإثم سوء الخلق ، لكن النبي ﷺ لا يريد أنها مدلولات خاصة للألفاظ ، فالإثم ما تردد في الصدر وأنف المرء من اطلاع الناس عليه ، والمقام هنا يقتضي الجمع بينهما جوابا للسؤال ومعالجة نهائية لقضية البر والإثم بتحديد مفهومها في ثوب جديد .

وفي الثاني : نجد الطباق بين أحب وأبغض . . ، وأعطى ومنع ، ونلاحظ فطرة التعبير ، وسلامة الطبع في الطباق بين الحب والبغض ، وهما شعوران متضادان ، والعطاء والمنع هما فعلان متقابلان ، ولو اقتصرنا على أحب لله وأعطى لله لأهملنا هذا الجانب الخطير في إيمان المؤمن وهو مقاومته الشر ورفضه البغي ، بل لما كان إيمانا كاملا بل عقيدة مستسلمة مشوهة بائسة ، فكمال الإيمان إذن يقوم على هذه الدعائم الأربع ، وراءها الرغبة فيما عند الله ، ومع هذا التأسيس جاء الجمال يقرن المتضادين في الخيال والذهن في مجال الشعور والسلوك ليتأكد الترغيب في استكمال الإيمان .

وفي ابتهال النبي ﷺ وتضرعه بغفران الذنب نجد مقام الدعاء المقتضى شيئا من التفصيل طمعاً في تحقيق الدعاء : «اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت» نحس السلاسة والطبع ، وهذه النغمة المتموجة التي تناسب مقام التضرع والتذلل مع القصد إلى استيفاء كل جوانب الذنوب التي لم يصرح بها تعليما للحياء من مواجهة الله تعالى بها ، والطباق يجمع بين الماضي والحاضر ، والسر والعلن في فقرات سريعة تبهر الخيال ، ولو لم يذكر : ما أخرت وما أعلنت لترك من الذنوب كثيرا ، وهو طعن بلاغي

---

(١) التاج الجامع ٣٦/٤

ولا يخفي هنا التواضع النبوي والتعليم وإلا فالنبي الكريم مغفور الذنب ، طاهر الثوب .

وفي الرابع : «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» ترغيبا في عمارة المساجد بالصلاة فيها خاصة في الأوقات الباعثة على التنافس كالظلمة الحالكة مثلا ، وبراعة الطباق في الجمع بين كلمتين لهما إيحاء خاص في النفس :«الظلم» «النور» وكما جاءت «الظلم» جمعا ليبين استهانة المؤمن المشاء إلى المساجد بالمخاطر «جاء النور فردا» برهان قوته ونفاذه موصوفا «بالتام» مع تناسب الجزاء للعمل فهنا ظلم ، وهناك نور تام ، وفي يوم القيامة ، قوة في الترغيب ، ثم إن الجمع بين حاضر دنيوي فيه معاناة ، وآت في الغيب له وقعه البهيج في قرن واحد في الأسلوب يحث الخيال على جمع هذه اللقطات بين حاضر ومستقبل في صورة كلية فيها ظلم ونور تام ، وهنا الإبداع والإمتاع الفني . .

المجموعة الثانية : (التأكيد)

١- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ينادي مناد في أهل الجنة آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وآن لكم أن تنعموا فلا تيئسوا أبدا».[١]

٢- وعنه عن النبي ﷺ من حديث عن الجنة «من دخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم»[٢]

٣- عن أبي موسى قال بعثني رسول الله ﷺ ومعاذ إلى اليمن فقال «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا»[٣]

---

(١) التاج الجامع ٤٣٢/٥ (٢) المرجع السابق : ٤٣/٥

(٣) المرجع السابق : ٣٦٧/٤

وفي هذه المجموعة نجد الطباق مقررا للحكم مؤكدًا للمعنى ، مثبتا للغرض العام ، والحديث الأول مركز على تحقيق الآمال الإنسانية التي تصطرع في أعماق البشر ويصطرعون في سبيلها ، ولأنها آمال لا تدوم في الدنيا ، لتغيرها وزوالها جاء الطباق بنفي ضد كل صفة تأكيدا ، ونفيًا لتوهم أنها تتغير ، أو تزول قياسا على المرئي في الدنيا ، وإنه لتأكيد أبرع من التأسيس ـ يحقق أمل المؤمنين في رحمة ربهم ، وقوة التأكيد بهذا الظرف المقيد للخلود «أبدا» معقبا به كل صفة مع امتداد حركاته دلالة على الديمومة والأبدية ، ولو قال : آن لكم أن تصحوا وسكت لتوهم أنها متعة مؤقتة ، مع ما في الطباق من الدلالة على التكريم بزف البشرى بخلود هذه النعم بطريق لا ريب فيه ، ومثل ذلك الحديث الثاني أيضاً .

وفي حديث أبي موسى : يوجه إلى صفات لابد من تحلي الداعية إلى الله بها ، لاسيما إذا تعاون معه غيره لنجاح الدعوة ، التيسير على الناس ، وتبشيرهم وتطاوع الدعاة ، وإن افتقدت صفة في الداعى انفض الناس من حوله وأخفق ؛ لذا كان التأكيد والتقرير هنا جد خطير يتطلبه المقام بالدعوة إلى الصفات أولا ، والنهي عن ضدها ، ثم جمع الحسن في مواجهة السيئ من الشيم ، عيانا أمام النظر والخيال ليعمل الترغيب في الأولى ، والتنفير عن أضدادها أثره المؤكد السريع الباقي .

المقابلة

وهي نوع من الطباق بالجمع بين معنيين متوافقين أو أكثر ثم مقابلتها بأضدادها ، ونلاحظ من قراءتنا الدائمة في البيان النبوي ـ الكثرة الكاثرة من المقابلة وتنوعها ، لدخولها في أغراض الدعوة بطريق مباشر ذلك أن المتقابلات بطبيعتها تفرض نفسها في عالم المحسوس ، والمعقول ، والمتخيل ، فهنا الدنيا والآخرة ، والخير والشر ، والخبيث والطيب ، وكل أمر أو حالة له ضد مرغوب فيه أو عنه ، بل إن الشيء الواحد تختلف به الحياة رفعا وخفضا ،

وصلاحا وفسادا ، وخيرا وشرا وإنها لسنة الله تشمل الكائنات جميعها ، لا جرم أن المقابلة تكثر هكذا كما نلاحظ أن المقابلة ـ كالطباق ـ قد تكون للإلمام بأطراف المعنى استيعابا للحكم ، أو تكون للتأكيد والتقرير الذي اقتضاه المقام ، وندرس هنا دور المقابلة في أداء المعنى .

(١) التقابل بين صفتين :

١- عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال خردل من كبرياء»[١]

٢- عن حراثة بن وهب عن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار : كل عتل جواظ مستكبر»[٢]

٣- عن ابن عمر عن النبي ﷺ «من خطبته يوم فتح مكة» «فالناس رجلان : بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله»[٣]

٤- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «المؤمن غر كريم ـ والكافر خب لئيم»[٤]

والأحاديث جمعت بين نماذج بشريه متقابلة تبدى رضاها عن الأولى بذكر صفاتها الطيبة ، وتنفر من الأخرى بسوق صفاتها السيئة ، وذكر صنف يؤكد الثاني تبعا مع كشف المعنى وجمعها في قرن واحد عقلا وخيالا لاسيما ما يؤكد الإقناع ذكر ما تقبله الفطر السليمة ، والعقول الواعية يمدحه . وفي الأول : تقابل بين صنف من أهل الجنة وآخر من أهل النار ، وذكر لأسباب الحكم وهو اتصاف الأول بالإيمان ولو قليلا ، ونعت الثاني بالكبرياء ، وإن يسيرا ، ونلاحظ أنه جمع في النوع الأول بين النار المنفية والإيمان وقابلها بالجنة المنفية والكبرياء واستحضار الجنة والنار في الخيال،والإيمان والكبرياء،

---

(١) التاج الجامع ٣٢/٥
(٢) المرجع السابق ٣١/٥
(٣) المرجع السابق ٢٤١/٤
(٤) المرجع السابق ٤١/٥

وهما شعوران فيهما شغل لمنافذ النفس زيادة في الترغيب والترهيب ، كما أن ذكر صنف لا يغني عن الآخر .

وفي الحديث الثاني : مقابلة شاملة بين أهل الجنة ، وبين أهل النار وصفات النوع الأول : الضعف والتضعف والتواضع البالغ وإجابة الدعوة ، والثاني غلظ القلب وكثرة التعالي ، والتكبر على الناس ، وهذان النموذجان مشاهدان في دنيا الناس وجمعهما معا : تأليف بين المتناقضات الحسية والنفسية ، لتؤتي المقابلة ثمرتها ، ثم الانتقال بالخيال لمحا بين الجنة المتخيلة إلى الحاضر في الدنيا ثم عودة الخيال في ومضة إلى الآخرة لتخيل النار ، ورجعه القافز إلى تمثل العتل في الدنيا بهذا التلوين والحركة يثبت المعنى ويقوى الصورة ترغيبا وترهيبا على نحو ثابت جميل .

والحديث الثالث يعد موازنة بين صنفين من البشر يتناولان الناس بر تقي كريم على الله تعالى ، وفاجر شقي هين على الله ، ومكونات الصنف الأول : البر والتقوى والكرم على الله ، والثاني بمقابلتها : الفجور والشقاء ، والهوان على الله ، والصفات ، بمضمونها ، وتقابلها بأضدادها ، واستيعابها لعالم ماثل في الواقع ، وفي الخيال مؤكد للترغيب والتنفير مع الجمال الفني ، وكذلك من المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم ، نلاحظ تعانق المقابلة الكاشفة للصورة المؤكدة للمعنى وقد أعان السجع والجناس في خدمة الغرض الداعي إلى التحلي بأخلاق الأول ـ والتخلي عن صفات الثاني .

المقابلة بين صفتين أو حالتين :

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال « آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار »[1]

عن أبي هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ « لو تعلمون ما أعلم لضحتكم قليلا ولبكيتم كثيرًا »[2]

---

(١) التاج الجامع ٢٦/١

(٢) المرجع السابق ٢٠٢/٥

وعنه عن النبي ﷺ «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ، ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ، ويصبح كافرا يبيع دينه بغرض من الدنيا»[1]

وفي الأول تقابل بين صفتين نفسيتين الإيمان والحب والنفاق والبغض ليجعل حب الأنصار ، وبغضهم مرتبطا بالعقيدة نفسها ، ذلك أن الرسول الكريم يحبهم ، والله يحبهم فحبهم من الإيمان ، وبغضهم من النفاق دعوة إلى حب هؤلاء العظماء ، وتنفيراً من بغضهم بشكل آكد .

والحديث الثاني : يقابل حالتين لموصوف واحد يتعاقبان عليه ، وذلك ينقل شعور الخوف إلى المخاطبين من عوالم مجهولة يبصرها ﷺ ، ويرى ما يبعث الرعب ، والجلال الخالص لله ، من جنة ونار وعجائب في ملكوت الله ، وقد قابل بين حال الضحك الدال على الابتهاج موصوفا بالقلة ، وبين حال البكاء الدال على دوام الفكرة والحزن موصوفا بالكثرة وقرن سلوكي الضحك والبكاء المقيدين أثرين لانفعالي السرور والألم في الذهن والخيال بما يقوي غرض الوصف لبث الإجلال لله والخوف منه سبحانه في الصدور .

وفي الحديث الثالث : قابل بين حالتين مختلفتين متعاقبتين لتصوير أثر الفتن وزلزالها الدين في أعماق الإنسان ، فثَمَّ إيمان بالصباح وكفر بالمساء بهذه المقابلة الأولى الدالة على مدى الاضطراب النفسي ، وتوزع المرء بين الفتنة ودينه ، ثم مقابلة أخرى بين إيمان بالمساء وكفر بالصباح دالة على هذا التبدل والتغير بين إيمان وكفر صباحا ومساء ، فهنا مقابلات ثلاث اثنتان جزئيتان وواحدة عامة لتصوير توارد الإيمان والكفر على المرء في كل وقت ، بل إن الوقت الواحد ليتناوبه الشعوران المتناقضان وإنه لاضطراب وزعزة بل إمحاء للإيمان وأثره في النفوس باستيعاب مؤكد ، فلا يمكن الاقتصار على مقابلة أو اثنتين لوصف الخطر الرهيب للفتن ، والتنفير من القرب منها .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٠١

المقابلة في الزمان :

وقد تأتي المقابلة لجمع وقتين متدابرين لتأكيد الصورة وإلهاب الخيال وتثبيت المعنى :

عن عمر ﷺ عن النبي ﷺ : قال « إذا أقبل الليل وأدبر النهار ، وغابت الشمس فقد أفطر الصائم »[1]

والمقابلة هنا بين إقبال الليل ، وإدبار النهار صورة فنية للحظة زمنية يتغير فيها الوجود فتدبر آخر فلول النهار وتقابل أولى طلائع الليل ، وإن المقابلة هنا لتكاد تنطق سحرا مع المجاز الذي بث الحركة والحياة في الليل والنهار ، مع كشف الصورة كشفا يحقق الغرض التشريعي ، وهو تحديد وقت الإفطار للصائم ، وكالحديث عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[2].

والمقابلة هنا بين حدث في زمنين متقابلين ، فالله يبسط رحمته ليلا ليتوب من أذنب نهارا ، فالفرصة سانحة للتوبة ، ويبسطها بالنهار ليتوب مسيء الليل مدا للأمل ، ولما كان الزمن ليلا ونهارا ، ولابد للحدث من زمن دل شقا المقابلة على استيفاء المعنى وهو قبول التوبة دائما ترغيبا فيها وحثًّا عليها .

تعقيب :

وضح مما سبق كيف أدى الطباق والمقابلة دورهما في البيان النبوي ، تبليغا وتأسيسًا وتأكيدا ، وخدمة لأغراض الدعوة المتنوعة ، وكيف بسطا سلطانهما على الأحداث والمشاعر ، والمكان والزمان تحقيقا للأغراض وإحداث متعة فنية اكسبتها العفوية وسماحة الطبع سحرا وجلالا مما زاد المعاني والأغراض قوة تحقيق وثبات .

---

(١) التاج الجامع ٢/٥٣ (٢) المرجع السابق ٥/١٥٢

قال ابن رشيق في معرض التمثيل للطباق : ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

فهذا هو المعجز الذي لا تكلف فيه ، ولا طمع في الإتيان بمثله[1].

مراعاة النظير :

وهو أن يجمع في الكلام بين أمرين أو أمور متناسبة لا بالتضاد ، ونقدم الأحاديث :

١- عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن النبي ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « إنكم لتبخلون وتجبنون ـ وإنكم لمن ريحان الله»[2]

٢- عن علي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[3]

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال»[4].

وفي الحديث الأول : يوضح عاطفة حب الأولاد ، وأثرها في النفوس ، فالولد امتداد لأبيه ، يحفظ اسمه ، ويرعى سمعته ، ويخلد ذكره ، من هنا كان حب الأولاد صورة من حب الذات بل أشد ، وفي سبيلهم ينسب الآباء إلى البخل والجبن والجهل ، وقد جمع بين هذه الصفات لتناسبها في الذهن ،

---

(١) العمدة لابن رشيق ٨/٢
(٢) التاج الجامع ٨/٥
(٣) المرجع السابق ١٢/٤
(٤) المرجع السابق ٢٠٠/١

وكونها صفات مرذولة ، والغرض من هذا الجمع بيان ما يورثه حب الأولاد من صفات مجمع على كراهتها ، ولا يرضاها لنفسه ما قل ، ولأنها أقبح صفات إنسانية لتأثيرها على علاقات الإنسان جمعها وحدة واحدة ، دون أن يكرر إن واسمها « إنكم» مع كل صفة إيجاز وقرنا متقاربًا بين صفات متناسبة بيانا للغرض .

وفي حديث علي : يحدد صفات الخوارج ، وقد جمع بين حدثاء الأسنان ، وسفهاء الأحلام ، لاقتران حداثة السن بالطيش والهوج لترتبها عليها غالبًا ، بل لو لم يذكر « سفهاء الأحلام» لتوهم من قراءتهم القرآن أنهم متدينون غيورون أو مغالون فاحترس بهذا الوصف ليوضح أنه قد اجتمع فيهم حداثة السن ثم أسوأ ما فيها وهي خفة العقول ، وسفاهة الألباب ، إيماء إلى أنه لا وزن لرأيهم ولا قيمة لعملهم ، والحديث يتنبأ بما سيحدث بعد عصر النبوة تحديدا لصفاتهم ، فالغرض إذن يستدعي هذا الجمع مع الإيجاز بعدم تكرار العامل ، وتوازى الكلمات في نغماتها تقسماتها ؛ مما يجعل الأسلوب كله نابضًا بالجمال .

وحديث أبي هريرة : جمع بين التعوذ من عذاب القبر وعذاب النار لاقترانهما في الخيال والذهن لأن القبر أول منازل الآخرة ، وعذابه مدخل لعذاب النار والدعاء الجامع المحكم يستدعي هذا الجمع بين ما يتعوذ منه في رحلة مهولة مجهولة ، وأقطع مافيها بداية وامتدادا ونهاية ، كما لا يخفي أن التناسب منع من تكرار التعوذ قصدا إلى الإيجاز الذي اتسم به البيان الكريم .

الجمع والتقسيم :

قد جاء على أنحاء مختلفة في البيان النبوي :

منها : الجمع بين شيئين أو أكثر في حكم واحد كالحديث عن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ «لا يدخل الجنة خب ولا منان ، ولا بخيل»[1].

---

(١) التاج الجامع ٥/٤١

وعن عبد الله بن محصن عن أبيه عن النبي ﷺ قال ، «ومن أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا».

فقد جمع في الأول : الخب الماكر ، والمنان المتطاول ، والبخيل الشحيح في حكم واحد هوالحرمان من الجنة تهديدا وزجرا .

والثاني يبين حقيقة الدنيا بتحديد أهم ما فيها،وهو الأمن والعافية وما يكفي قوت اليوم جمعا لها تحت حكم واحد هو حيازة الدنيا ، تعليمًا للقناعة وحذا من التسابق على الزائل ودفعا للشكر على نعم لا يلقى لها الناس بالا .

ومنه الجمع مع التقسيم :

كقوله ﷺ : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق»[1]

وعن النبي ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر»[2]

وعن النبي ﷺ : «الحياء والعي شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق[3]».

فقد جمع في الحديث الأول خصلتين ، وختم بأنهما لا تجتمعان في مؤمن لأثرهما السيئ على الإيمان : ثم قسمهما إلى البخل وسوء الخلق .

والثاني أتى بالجمع موصوفا بالطرد والغضب الإلهي يوم الدين ثم قسم بأن الثلاثة شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر ، والجمع في عقاب واحد مخيف مقدم ، قوة في الترهيب ، وتشويقا للتقسيم تثبيتا للترهيب من الصفات وذويها .

أما الثالث فقد قسم أولا الحياء والعي والبذاء والبيان ، ثم جمع كلا في حكم واحد ، شعبتان من الإيمان ، وشعبتان من النفاق ، بهذا التعبير الدال ترغيبا وتنفيرا .

---

(١) التاج الجامع ٥/٦٨

(٢) المرجع السابق ٥/٤١

(٣) المرجع السابق ٥/٣١

وقد يجتمع : الجمع مع التقسيم والتفريق .

كقوله ﷺ : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إنما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة »[1].

فقد جمع الجليس الصالح والجليس السوء تحت المثل ، ثم فرق في المشبه به ، ثم قسم مثبتا أحوال كل ، ولاشك أن التفكير في أحوال البشر مع إلهامات النبوة قد أخرج هذه الحكمة المكتنزة التي تضيء للناس طريقهم في اختيار أصدقائهم والتي اقتضاها الغرض ترغيبا في مجالسة الصالحين ، وتنفيرا من الطالحين ، وبراعة التقسيم هنا في استيفائه أجزاء المعنى ، وهذا ما أطلق عليه « ابن أبي الإصبع » صحة التقسيم [2] ، كمثل الحديث الشريف عن مطرف عن أبيه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول « ألهاكم التكاثر » قال : يقول ابن آدم ما لي مالي ، وهل لك إلا ما تصدقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت »[3] والحديث : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »[4]

فلا ريب أن المال لا وجه له إلا هذه الأوجه الثلاثة المعتبرة ، اثنان منها فانيان ، والآخر باق مدخر ، كما أن الأرواح بين متعارفة متآلفة ، ومتناكرة متنافرة .

وقد نجد الأسلوب مصوغًا مقسما شاملا للمعنى العام دون جمع إيماء الى استقلال كل قسم في أدائه معنى مستقلاً له دافعه كقول الرسول ﷺ :« اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[5]

---

(١) التاج الجامع : ٦/٥ .
(٢) انظر : تحرير التحبير ١٧٦/١
(٣) التاج الجامع : ١٦٣/٥
(٤) المرجع السابق : ٨١/٥
(٥) المرجع السابق : ٦٣/٥

ظاهرة لافتة :

وبعد : فحيثما أردنا معالجة هذا اللون راعتنا كثرة الأحاديث : إن صفحة واحدة من كتاب التاج البالغ خمسة أجزاء لا تكاد تخلو من نوع من هذا اللون وفكرنا في الأمر واهتدينا لتعليل هذه الظاهرة :

لقد كان رسول الله ﷺ كثير التأمل ، طويل الصمت ، وإذا تكلم تكلم بالحكمة ، وعادة ما يقول ثلاثا مترسلا ، متأنيا ، لتتشرب النفوس هديه الكريم ، وليس كالحصر ، والتقسيم والتحديد ما يعين على ذلك سواء شمل هذا الحصر دعائم الدين وأركانه ومبادئه ، أم فضائله وسننه ، وسواء اتجه الكلام إلى عالم الأخلاقيات والمثل أم عالم الواقع الملموس لا يحصره عد بتلك الطريقة مع طرق أخرى استقرت تشريعات النبي في النفوس على مدى الأجيال ، ولما لهذه النظرية من أثر نجد هذه التقسيمات المعتدلة ، والتحديات الدقيقة التي يلجأ إليها العلماء في كل جيل .وقبيل إعانة على الإلمام بجوانب المعرفة .

صفوة القول أن هذا اللون وقد جرى بشكل عام في بيان النبوة ، وقام بأغراضها وأدى أهدافها وبين أسرارها لا يمكن والحال تلك جعله زينة وحلية ذلك أن الزينة إذا كثرت كانت إسرافا يسقط الأسلوب باتفاق البلاغيين ، أما وهذا النبوغ البلاغى كثير كثرة بالغة ولم يزدد الأسلوب إلا نبلا فهو كالتشبيه الذي كثر في البيان النبوي لنجاحه في أداء غرض النبوة لا جرم أننا نضمه إلى الطباق فيما لا يتم النظم إلا به ـ وأن يجعل ـ لونا بلاغيًّا ذاتيا إن كان مقتضى مقام ، يدل على ذلك ما ألحق بهذا اللون من لون آخر سماه ابن أبي الإصبع والعلوى بالتوشيع وحدده الأول بأن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين المثنى يكون الأخير منهما قافية بيته أو سجعة كلامه كأنهما تفسير له ثم قال : وقد جاء من ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة وهو قوله ﷺ : «يشب ابن آدم ويشب معه خصلتان

الحرص وطول الأمل»[1] بينما أطلقه العلوي فجعله أن يأتي المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه[2] ولا يخفى الجمع والتقسيم هنا وأن التوشيع ذكره البلاغيون من أقسام الإطناب من علم المعاني .

الانسجام :

وقد تعرض له ابن أبي الإصبع فقال :«أن يأتي الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم ، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الوزن وقع في النفس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره مع خلو من البديع وبعده عن التصنيع ، ثم مثل له من السنة بقوله ﷺ في القرآن :

« إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبًا فيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول المدد ولا تنقضى عجائبه . . .» الحديث ، ثم قال : «فانظر إلى انسجام هذه العبارة وما جاء فيها من البديع غير مقصود ، تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير مرو»[3] وما يلفت النظر حقا هو استيعاب البلاغة التقليدية لكل نظريات النقد الأدبي المعاصر ذلك أن الانسجام يدخل تحته ملاءمة الألفاظ لمعانيها وهو ما نبه إليه ابن الأثير وسماه : ارتباط الألفاظ صوتها بمعناها ، فقال «الألفاظ الجزلة تتخيل في السمع ، كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج»[4]

وجاء النقد الحديث يزكي هذا المعلم ويوسع من دائرته فقال « لا سل ابركرمى» قد يراعى في الألفاظ ناحية أدق وأخف : وهي أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف ، أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس ، وهذه الخاصية

---

(١) انظر : تحرير التحبير ٣١٦/٢ ، والطراز ٨٩/٣

(٢) انظر : الطراز ٨/٣

(٣) انظر : تحرير التحبير ٤٢٩/٣-٤٣٢ (٤) انظر : المثل السائر ٢٥٢/١

للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة ، وتأثير أصواتها ، وقال عن التلاؤم بين الألفاظ :« ولكن هنالك ناحية أخرى لتأثير الكلمات وهي التي ينظر فيها إلى الكلمات متتالية متعاقبة ، وهذا ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقى اللفظ ، فهنا لا ينظر إلى الأصوات ، ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها في عدة جمل »[1] وهذا التلاؤم بين الألفاظ وبين الموضوع من ناحية ، وبين الألفاظ نغما وموسيقى من ناحية أخرى يحدث ما يسمى بموسيقى النفس التي تتبع الألفاظ نغما وموسيقى ذلك أن الكلام إذا رتب ترتيبا نفسيا يوافق اهتزاز المشاعر ، وتموجات النفس فجاء مطردا منسجما متدفقا في نسق خاص أحدث هذا الطرب النفسي في هذه الموسيقى الخفية ، لأنها ترجمة صوتية عن تجربة الكاتب تعين اللغة على أداء مضمونها الروحي مع الإيحاءات والمعاني الجديدة وهذا ما يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة والرقة والجزالة والفخامة وغيرها مما يعبر عن رضائهم عن الأسلوب .[2]

والواقع أن موسيقى الحديث النبوي ذات ألوان مختلفة باختلاف موضوعها :

ففي مجال الزجر والترهيب نجد القوة والفخامة ، وفي مجال الترغيب نجد الرقة والشفافية وفي الدعاء قبل النوم هناك الهدوء والاستسلام ، وعند الحرب نجد اللحن الحماسي العنيف[3]

ونأخذ مما سبق :

١- استيعاب البلاغة العربية لمفاهيم النقد الحديث .

---

(١) انظر : قواعد النقد الأدبي ترجمة دكتور محمد عوض محمد ، ص ١٥ ط . لجنة التأليف والنشر ١٩٥٤

(٢) انظر : دراسات فى علم النفس الأدبي للدكتور حامد عبد القادر ص ٩٣٠٩٠ ، والأصول الفنية للأدب ، الأستاذ عبد الحميد حسن ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) انظر : الحديث النبوي ، الصباغ ص ٧٧ ، وسيدنا محمد فى إبداعه الأدبي ص ٢٤١-٢٤٣ .

٢- تنبه القدماء لأثر الموسيقى ظاهره وخفيه في الأسلوب وإطلاقهم الانسجام والملاءمة وارتباط الألفاظ صوتيًا بمعناها .

٣- الانسجام صفة ذاتية للأساليب لا تنفك عنها ، وليست لونا بديعيًا لا يلتزم بل يتبع النظم كقانون بلاغي وضح بجلاء عند عبد القاهر الجرجاني .

وعلى هذا ينضوي تحت الانسجام ما ذكره العلوي من لون آخر هو «الإلهاب والتهييج» قال : وهذا كثير فيما كان واردا في الأوامر والنواهي له ﷺ فإنما كان على جهة الإلهاب على فعل الأوامر - والانكباب عن المناهي ، والتهييج لداعيته وحثا له عليه .[1]

والواقع أن البيان النبوي يعتمد كل وسيلة بيانية وصولا إلى الإثارة الوجدانية والإقناع العقلي حتى تقر مبادئ الرسالة في الأعماق .

* * *

(١) انظر : الطراز ١٦٦/٣